

## القيم الأخلاقية في الشعر العربي

د. ادهم حمادي ذياب النعيمي

كلية التربية الأساسية / الجامعة المستنصرية

### المقدمة

شغل الشعر العربي حيزاً كبيراً من تفكير الأدباء العرب في عصورهم المختلفة ، وقد كشفت بدايات هذا الشعر في عصر ما قبل الإسلام عن فلسفة راقية ذات أبعاد إنسانية رفيعة ، فقد كان الشاعر ينظم بوحى من شعور سام ومسؤولية عالية في تقديم مستوى من الأفكار من شأنها أن تجعل من المجتمع الأنموذج الأمثل الذي يتوق مفكرو الأمم شرقها وغربها بلوغه .

حاولنا في هذا البحث أن نجمع ما يتيسر من الشعر التربوي في العصور الإسلامية وما قبلها ، وبدأت هذه المهمة عسيرة في بادئ الأمر بيد أن التقصي الجاد أظهر لنا تراثاً كبيراً في كمية نماذجها وفي تشعباته الموضوعية وإزاء ذلك وجدنا إن المنهج التاريخي خير وسيلة لدراسة هذا الموضوع ، فسهل علينا تتبع بدايات الشعر التربوي وتطوره فيما بعد إذ أصبح مواكباً للنظريات التربوية التي بدأت تظهر إلى الوجود منذ العصور الإسلامية الأولى وأصبحت تخضع للتجربة والتمحيص على أيدي طائفة مرموقة من أدباء وعلماء أمتنا الأجلاء .

وبعد فإن هدفنا هنا لن يتركز على إحصاء الشعراء الذين نظموا في الأدب التربوي لأن هذا أمر يطول ، ولكننا سعينا إلى انتقاء الأعمال المهمة ذات الشهرة الواسعة والقيمة العالية ، وقد أغفلنا ذكر الشعراء ذوي التجربة المحدودة في هذا المجال وهم كثيرون جداً ، فضلاً عن بعض المقلدين أو أصحاب الأعمال الضعيفة المكررة واكتفينا بالإشارة إلى بعضهم في الهوامش .

وبعد فإن الباحث في محاولته استجلاء هذه الظاهرة لا يسعه إلا أن يحمد الله تعالى على فضل تيسيره إذ خرج البحث بهذه الصورة أرجو أن أكون قد وفقت وبه نستعين .

للأدباء العرب نظرة سامية إلى الحياة قوامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووضعوا لأنفسهم ومجتمعهم شروطاً أخلاقية وثيقة تحكم سلوك الفرد وتحميه من الزيغ ، وتصور المجتمع من

التصدع والانهييار ، وتقوم نظرة العرب التربوية على أسس قيمة تدعو بصدق ونزاهة إلى بناء نظام حياتي يرتكز على الأخلاق والقيم المثلى ، ولم يغفل الأدباء في دعوتهم هذه إلى ترصين العلاقة بين الفرد ومجتمعه وبين الفرد وخالفه بما ينسجم مع القيم السماوية والتعاليم الإسلامية ، فتحت الإنسان على العمل الصالح في حياته الدنيا من دون أن ينسى الآخرة فيعمل لكل منهما بنسيج متآلف وتفاعل وثيق لا تنافر بينهما ، لذلك سعى الأدباء إلى تهذيب الضمير وتحديد السلوك بما يحفظ حقوق الآخرين وينظم الحياة الإنسانية وينبّه إلى المخاطر التي تحدق بالمجتمع العربي وعلى رأسها المؤثرات المادية التي تدعو إلى التحلل الأخلاقي والروحي .

لقد أضطلع الأدباء العرب بهذه المهمة النبيلة فتركوا لنا تراثاً هائلاً يستحق الفخر والعناية ، وكان الأدب التربوي العربي من الفنون الجادة القديمة ، ولو تتبعنا آثاره لوجدنا شواهد تمتد إلى أعماق سحيقة في التاريخ ، ومن تلك العصور التي لا يعلم مداها إلا الله تعالى ، يصدر صوت لقمان الحكيم بنصائحه ووصاياه لولده ، فجعلها سبحانه وتعالى نماذج صادقة صالحة للتوجيه في كتابه العزيز القرآن الكريم ، وجّه بها الناس أجمعين ونظم العلاقات الفردية والعامة في حدود الأسرة والمجتمع وجعلها في إطار روحي يستند إلى قواعد التوحيد وتحذر من الإشرار بالله تعالى وهذه الأمور مجتمعة يجمعها قوله تعالى : " يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم " سورة لقمان ، الآية (١٣) ، وقال تعالى : " يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر وأصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ولا تصعّر خدك للناس ولا تمشي في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور " سورة لقمان ، الآية (١٦ - ١٧) .

وما عسى علم التربية أن يقدم أكثر من ذلك؟! مهما قدم المنظرون منذ أقدم العصور وإلى ما شاء الله ، إذن لقد عرف العرب التربية بصيغتها العملية وإن لم يدركوا أبعادها النظرية بعد ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله : " وكنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر " وهذه الإشادة الإلهية هي شهادة حق .

وقد حفزنا هذا الأمر إلى تتبع الآثار التربوية في تراثنا منذ القدم ، ومن خلال النظرة التقويمية الشاملة الأولى للشعر العربي ، وجدنا أنه مرّ بطورين ، الطور الأول عفوي تلقائي صدر عن نية خالصة ذلك هو الشعر التربوي لعصر ما قبل الإسلام ، أما الطور الثاني فهو علمي - بشقيه النظري والتطبيقي - وقد أتسم أدبنا العربي بهذه السمة بعد نزول القرآن الكريم في صدر الإسلام وما تلاه ، وانطلاقاً من هذا الفهم جاءت محاولتنا لتأكيد هذه القضية بما تيسر لنا من نصوص أدبية رفيعة .

## ١- الطور المعنوي التلقائي :

إن قراءة شعرنا القديم من شأنها أن تنبه الباحث إلى ظاهرة لا يمكن إغفالها ذلك ما اصطلاحنا عليه بالشعر التربوي ويتمثل بمجموعة صالحة من الوصايا والإرشادات والنصائح الصادقة ، وكانت هذه الأمور تنساب على ألسنة الشعراء في عصر ما قبل الإسلام بشكل عفوي الدافع إليه شعور إنساني صادق مجرد من أية غاية أو منفعة ذاتية ، إنما كانت غاية أخلاقية عليا ورسالة قويمه أساسها بناء مجتمع صالح ، ولم يكن الشعراء آنذاك يعلمون أن ما يقولونه سيكون علماً مستقلاً ذا أصول ونظريات قويمه صالحة لبناء مجتمع مثالي ينشد إلى الخير والصلاح .

ويعد زهير بن أبي سلمى أحد أشهر الشعراء الذين نظموا في هذا الباب وقد أسدى لقومه نصائح كثيرة ومتنوعة ضمنها معلقته الشهيرة وهي تمثل في الواقع خلاصة تجربته الطويلة ، فقد خبر الحياة فأهلته لكي يصبح معلماً ومربيّاً وناصحاً أميناً لقومه بعد أن أمضى ثمانين عاماً ، وقد نبّه الشاعر إلى قيمة العمر في اكتساب العلم والخبرة في قوله :

سَمِيتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشُ      ثَمَانِينَ حَوْلًا - لَا أَبَالِكَ - يَسَامُ  
وَأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ      وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمٌ<sup>(١)</sup>

جعل زهير من هذين البيتين مقدمة لموضوع النصائح ليهيئ بها ذهن المتلقي ويغريه بتقبل أفكاره التي سردها بشكل سريع ومكثف على نحو ما سنراه في أبيات ختم الشاعر بها معلقته الشهيرة وكأننا به يقول هذه هي خلاصة التجربة الإنسانية ، ولم يمثل الفكر التربوي عند زهير غرضاً مستقلاً بذاته إنما جاءت حكمه بشكل عرضي وقد قدم الشاعر عليها أغراضاً كثيرة أخرى كالغزل والوصف والمديح وغيرها ، وتعد هذه المسألة سمة مشتركة بين شعراء هذه العصر ، ولا بأس في ذلك لأنها تجربتهم الأولى في هذا الميدان ، نعود إلى زهير وهو يقول :

وَمَنْ لَا يَصَانَعُ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ      يَضُرُّ بِأَثْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسَمٍ  
وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ وَيَبْخُلُ بِفَضْلِهِ      عَلَى قَوْمِهِ يَسْتَفْغِنَ عَنْهُ وَيَذْمُ  
وَمَنْ لَا يَذُدُّ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ      يُهْدِمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يَظْلَمُ  
وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنْلَنَهُ      وَلَوْ نَالَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بَسْلَمَ  
وَمَنْ يَغْتَرِبُ يَحْسِبُ عَدُوًّا صَدِيقَهُ      وَمَنْ لَا يُكْرِمُ نَفْسَهُ لَا يُكْرَمُ<sup>(٢)</sup>

١. شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص ٢٩

٢. شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص ٢٩-٣٢ .

ومن فرط ذكاء زهير ومقدرته الفنية فقد جعل الخطاب صالحاً للفرد أو للجماعة على حد سواء وان كان يميل إلى الصيغة الجمعية يخاطب بها قومه .

أما من الناحية الموضوعية فقد عرض الشاعر جملة أمور تمس الحياة في عصره ومال إلى التركيز الشديد فقد ضغط أفكاره ضغطاً شديداً وجعل الموضوع في بيت منفرد لا يرتبط بغيره ، وبهذا فقد حشد أكبر قدر من الوصايا المركزة لتغدو أكثر فائدة ونفعاً وأثراً ، وقد أستخدم زهير أسلوب الشرط في معالجة هذه الموضوع الدقيق لأنه يرى أن الأثر الذي يتركه هذا الأسلوب أبلغ في القبول من أسلوب الأمر والنهي الذي مال إليه آخرون أمثال الشاعر الكبير عبيد بن الأبرص الاسدي الذي نظم في التربية قصيدة لها شهرة واسعة فقد أكثر في استخدام أسلوب الأمر الذي يبدو واضحاً فيما اخترناه من أبيات يقول فيها :

كفى زاجراً للمرة أيام دهره	تروح له بالواعظات وتغتدي
إذا أنت طالبت الرجال نوالهم	فعف ولا تطلب بجهد فتتكدي
ولا تفقدن عن سعي ما قد ورثته	وما استطعت من خير لنفسك فازددي
إذا ما رأيت الشر يبعث أهله	وقام جناة الشر بالشر فأقعد
وبالعدل فأنطق إن نطقت ولا تكن	ذا الذم فاذممه وذا الحمد فأحمد
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه	فكل قرين بالمقارن يقتدي
إذا أنت حملت الخوون أمانة	فأنك قد أسندتها شر مسند
ولا تظهرن ود امرئ قبل خبره	وبعد بلاء المرء فاذمم أو أحمد (٣)

وهكذا نجد إن الشاعر عبيد ينتقل من موضوع إلى آخر بحرية تامة فقد نبه إلى عدة أمور في الأبيات المذكورة فانتقل من موضوع العفة في البيت الثاني إلى موضوع عدم الاعتداء على حقوق الآخرين في البيت الذي يليه ، ثم إلى اتقاء الشر ، ونبذ قرين السوء وحفظ الأمانة وغير ذلك كما هو مدون ، وقد يحكم الشاعر بعض أفكاره فيرسلها بصيغة المثل ليزيد في تأثيرها كما في قوله :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ( فكل قرين بالمقارن يقتدي )

وقد يتناول الشاعر في البيت الواحد عدة أمور مجتمعة دون أن يخل ذلك بالبيت كما في قوله :

وبالعدل فأنطق إن نطقت ولا تكن      ذا الذم فاذممه وذو الحمد فأحمد

٣. ديوان عبيد بن الأبرص ، ص ٥٢-٥٧ .

فإذا كان البيت كافياً لاحتواء فكرة كاملة فكان بها ، وإذا اقتضى الأمر بعض التفصيل فإن الشاعر قد يتعدى البيت أو البيتين أحياناً ، وقد ينظم قطعة في موضوع واحد يعالجه من كافة نواحيه مثلما فعل الأفوه الأودي بقصيدته التي تدعو إلى الوحدة الاجتماعية ونبذ الفرقة حيث يقول :

البيت لا يبتنى إلا على عمـدٍ      ولا عماد إذا لم ترس أوتادا  
فان تجمع أوتاداً وأعمدةً      وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا  
لا يصلح الناسُ فوضى لا سراة لهم      ولا سراة إذا جهّالهم سادوا  
تُهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت      فان تولت فبالأشرار تنقاد  
إذا تولى سراة القوم أمرهم      فما على ذاك أمر القوم فازدادوا<sup>(٤)</sup>

ولا يفصل الشاعر بين دعوته إلى الوحدة وفضل القيادة الصالحة فهو يشترط لأجل أن يكون المجتمع مترابطاً معافى لا ضغينة بين أفرادها ، أن يتولى سراة القوم الأمور لينعم الجميع بالخير ، ويلاحظ في هذه الأبيات إن الشاعر قد أنتزع من بينته البدوية صورة جعلها مثلاً للقوة ما هو في بناء الخيمة بكل تفاصيلها من أوتاد وأعمدة وغير ذلك ، وقصد الشاعر عدم التهوين من أي شيء من أجل إرساء دعائم القوة بالتعاون .

ويشارك طرفة بت العبد رفاقه في رفق هذا المنهج الأخلاقي بأشعاره التي تطفح بالحكمة ، وفي وصاياه يقدم خبرته لأبناء قومه وهي وصايا لا يمكن الاستغناء عنها يقول فيما اخترناه له :

إذا كنت في حاجة مرسلأ      فأرسل حكيمأ ولا توصه  
وإن ناصح منك يوماً دنا      فلا تنأ عنه ولا تُقصِه  
وإن بابُ أمر عليك التوى      فشاور لبيبأ ولا تعصِه  
وذو الحق لا تنتقص حقهُ      فان القطيعة في نقصِه<sup>(٥)</sup>

لا يحتاج الذهن في هذه القصيدة إلى جهد لإدراك المغزى من ورائها فهي سهلة المعاني ، ألفاظها قريبة الدلالة ، خلافاً لما جاء به شعر طرفة في المضامين والأغراض الأخرى ، وهذا دليل على وعي الشاعر بطبيعة مهمته في إيجاد لغة مشتركة يفهمها الجميع على حد سواء ، ويتفق الناس على صدق مضمونها ، نصت أبيات طرفة التربوية على دور الحكماء في الحياة وضرورة الاحتكام إلى عقولهم الراجحة في كل خطب وسخر لأجل هذه الغاية ثلاثة أبيات مترادفة ، انتقل منها إلى

٤ . الأمالي ، أبو علي القالي ، ٢٢٤/٢

٥ . ديوان طرفة بن العبد ، ص ٦٤ . وقد وردت هذه القصيدة أيضاً في ديوان الشاعر عبد الله بن معاوية ، ينظر : شعر عبد الله بن معاوية ، جمع : عبد الحميد الراضي ، ص ٥١ .

موضوعات أخرى يمكن للقارئ أن يدرك مغزاها ببسر ، وبهذا – فهو ينأى عن أسلوب فرض الرأي على الآخرين الذي درج عليه غيره .

ويتحفنا الشنفرى ثابت بن اوس الازدي بلاميته المعروفة بـ ( لامية العرب ) ذائعة الصيت وقد سعى الشاعر إلى إيصال الدروس التربوية إلى المتلقي بأسلوب جديد ، ويبدو انه استهجن أسلوب الأوامر والنواهي الذي عهدناه وسنعهده لدى الشعراء الآخرين فقد ظهر في الأبيات الآتية يناشد ذاته وكأنما يقوم نفسه ، وبهذا فهو ينأى عن أسلوب فرض الرأي على الآخرين وهو ما درج عليه غيره ، أبياته إذن تمثل نصائح عامة لما ينبغي أن يكون عليه الرجل من الصفات بحسب رأيه ، فهو أدرى بأن نصائحه قد لا تروق بعض الناس ، نصغي إلى قوله : <sup>(٦)</sup>

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى	وفيهامن خاف القلى متعزلاً
لعمرك ما بالأرض ضيق على امرئ	سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل
وان مُدت الأيدي إلى الزاد لم أكن	بأعجلهم إذ أجشعُ القومُ أعجلُ
وما ذاك إلا بسطة عن تفضل	عليهم وكان الأفضل المتفضل
وليست بمهيف يُعشّي سوامه	مجدعة سقبانها وهي بُهْلُ <sup>(٧)</sup>
ولاجبَاءٍ أكهى مُربّ بعرساله	يطالعهام في شأنه كيف يفعلُ <sup>(٨)</sup>
ولا خرق هيّق كأنّ فواده	يظلّ به المكاء يعلو ويسفلُ <sup>(٩)</sup>
ولا خالف داريّة متغزل	يروح ويغدو داهناً يتكحلُ <sup>(١٠)</sup>
ولست بعَلّ شره دون خيره	ألف إذا ما رُعتهُ اهتاج أعزلُ <sup>(١١)</sup>

لقد أظهر الشاعر في لاميته هذه براعة فائقة فقد أنتزع من الطبيعة صوراً بديعة خدمة لغرضه الأخلاقي ، بيد أنه مال إلى استخدام ألفاظ تنسجم مع طبيعة الحياة البدوية القاسية ، إذا بدت غير مألوفة في مثل هذا النمط من القصائد الذي يتطلب وضوحاً في الفكرة ويسراً في الفهم خلافاً لما عهدناه لدى الشعراء الذين استعرضنا قصائدهم ، وبالرغم من ذلك فإن الصور الأدبية التي عرضها الشاعر كانت رقيقة عذبة ، وهي تنم عن روح شفافة تحمل أرقى المثل والمشاعر الإنسانية ، وأنفرد الشنفرى في عرض موضوعات أخلاقية لم يتناولها غيره منها ما قاله في ( آداب الطعام ) :

٦. لامية العرب ، الشنفرى ، ص ٥١- ٥٥ .  
٧. ( المهيف ) : الذي يشتد عطشه في النهار ( يعشي السوام ) : يرعى البهائم ليلاً ( المجدعة ) : سيئة الغذاء . ( السقب ) : ولد الناقة . ( بُهْل ) : النوق .  
٨. ( الجباء ) : الجبان . ( الأكهى ) : الضعيف . ( المربّ ) : المقيم . ( عرساله ) : زوجته .  
٩. ( الخرق ) : الخائف . ( الهيف ) : الظليم . ( المكاء ) : طائر كثير الخفوق .  
١٠. ( الخالف ) : الذي لا يليق النداء ، ( دارية ) : الذي لا يغادر داره .  
١١. ( العَلّ ) : القراد وهو نياحة الخيل . ( الألف ) : العالج .

## بأعجلهم إذا أجشع القوم أعجل

## وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن

والفكرة على بساطتها ، لم يتنبّه إليها الشعراء الآخرون ، لهذا السبب جعلناها مميزة عند الشنفرى ، فضلاً عن موضوعات مختلفة أخرى عرضها بعناية فائقة ، واستنبط الشاعر طريقة للعرض لم يسبقه إليها أحد ، فقد أمعن في رسم ملامح شخصية مثالية تحمل كل المعاني والقيم الإنسانية الجليلة من رجولة وشهامة وإقدام ، وما هذه الشخصية إلا شخصيته هو ذاته وبها أغرى الآخرين للإقتداء بها .

والمثقب العبدى من الشعراء الذين عرفوا قيمة الوصايا التربوية في الحياة العربية ، كيف لا وهو الذي يعرف بالشاعر الحكيم ، فقد ترك لنا العبدى مع جملة ما ترك من أدبه ، قصيدة في الأدب الرفيع ، ضمّنها شذرات تربوية ذات قيمة عالية ابتدراها بموضوع ( انجاز الوعد ) وقد أكد على هذه المسألة ببيتين بديعين يقول فيهما :

لا تقولنّ إذا ما لم تُردّ أن تتمّ الوعد في شيء نعم  
وإذا قلت نعم فأصبر لها بنجاز الوعد إن الخلف ذم<sup>(١٢)</sup>

وتوجّه أبيات العبدى التالية الأنظار إلى موضوعات أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها ، تتمثل بحقوق الجار وهذا ما يعزز الوشائج الاجتماعية ، ومن ثم يتطرق الشاعر إلى موضوع الصفح والتسامح بين الناس كل ذلك في قوله :

أكرم الجار وأرعى حقّه إن عرفان الفتى الحقّ كرم  
إن شرّ الناس من يكثّر لي حين يلقاني وإن غبت شتم  
ولبعض الصفح والإعراض عن ذي الخنا أبقي وإن كان ظلم  
أجعل المال لعرضي جنة إن خير المال ما أدّى الذم<sup>(١٣)</sup>

لقد جاءت الأبيات على درجة عالية من الصدق فالشاعر مما لم يتوجه إلى شخص بعينه كي يحظى بجوائزه وعطاياه فالمخاطب يتمثل في كل شخص على الأرض شرقها وغربها ، كبيراً كان أم صغيراً .

ويبقى الكرم موضوعاً أثيراً عند العرب وله خصوصية في نفوسهم لأنه يمثل ابرز مقومات الشخصية العربية ، وقد دأب العرب على الافتخار بهذه الصفة وأصحابها ، وغدا أجواد العرب رموزاً خالدة في الضمير القومي يحفظ الأبناء ذكراهم عن الآباء وهكذا ، ودنت منزلة كل منهم

١٢. ديوان المثقب العبدى ، ص ٢٢٧ .

١٣. ديوان شعر المثقب العبدى ، تح. حسن كامل الصيرفي ، ص ٢٢٧-٢٣٢ .

بالقادة العظام في تاريخ العرب لما لهذه الخصلة من قيمة عالية في النفوس ، وقد دأب الشعراء والحكماء العرب على تربية أبنائهم على التمسك بهذه الخصلة ( حب الكرم ) وإدامتها كي لا تخبو جذوتها ، وما انفكوا يذكرونهم بها من خلال تراث أدبي ضخم ورثوه فضلاً عما أبدعته قرائحهم من أشعار جميلة تتوق النفس إلى سماعها وكرّسوا لهذا الغرض القصص الشعرية وبعض النصائح المباشرة ، كان حاتم الطائي رمزاً فريداً لموضوع الكرم عند العرب ، فرووا عنه حكايات طريفة ونظموا فيه شعراً لا يلبث الناس يستشهدون به ، نسب أكثره إلى هذه الشخصية ، وقد رأينا أن نذكر بعضاً منها بما يناسب المقام ، ومما قيل في انه خاطب امرأته :

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك	ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد
وإذا ما صنعت الزاد فالتمسي له	أكيلاً فاني لست أكله وحدي
أخاً طارقاً أو جار بيت فأنني	أخاف مذ مات الأحاديث من بعدي
وللموت خير من زيارة باخل	يلاحظ أطراف الأكيل على عمد
واني لعبد الضيف ما دام ثاوياً	وما في ألا تلك من شيمة العبد <sup>(١٤)</sup>

ولقيمة موضوع الكرم عند الشاعر ، فقد ميّزه لوحده ولم يدخل موضوعاً آخر ، وتكمن قيمة هذه الأبيات في أنها تمثل درساً نظرياً وعملياً لما ينبغي أن يكون عليه العربي ، ليتقي به معارة الذم ويكسب به الحمد والمجد ، ولم ينس الشاعر أن يُعلم المتلقي درساً مهماً في أدب الضيافة ولاسيما في البيت الأخير ، ورضي أن يسم نفسه بالعبد مبالغة منه في تصوير مقدار خدمته لضيفه وإن كان يأنف أن يكون عبداً حقيقة كما صرح بذلك ، وفي هذا الموضوع قال آخر ولم يسمه صاحب الحماسة :

سأقبح من قدرني نصيباً لجارتي	وان كان ما فيها كفافاً على أهلي
إذ أنت لم تُشرك رفيقتك بالذي	يكون قليلاً لم تشاركه في الفضل <sup>(١٥)</sup>

وقال رجل من آل حرب يحاور امرأته وهي تلومه لكرمه وإسرافه فينهاها عن قول ذلك ويُفهمها بقوله :

باتت تلوم وتلحاني على خلق	عودته عادةً والخير تعويد
قالت أراك بما أنفقت ذا سرف	فيما فعلت فهلاً فيك تصريد
قلت اتركيني أبغ مالي بمكرمة	يبقى ثنائي بها ما أورك العود

١٤. ديوان حاتم الطائي ، تح. كرم البستاني ، ص ٦١-٦٢ . وثمة نماذج كثيرة في هذا الباب التمسها في مواضع متفرقة من الديوان

١٥. ديوان الحماسة ، أبو تمام . نح. د. عبد المنعم أحمد صالح ، ص ٥٤٠.



## إنّا إذا ما أتينا أمر مكرمةٍ قالت لنا أنفسُ حربيةٍ عودوا (١٦)

لقد غدت هذه المعاني الأخلاقية جزءاً أساسياً في حياة الفرد النموذج فكراً وسلوكاً ، ولا يمكنه التخلي عنها مهما بلغت التوضيحات ، وقد أفرد أبو تمام الطائي في حماسته باباً كاملاً في الكرم أنتقى له أشعاراً كثيرة من التراث العربي القديم له ميزته بين أبواب الكتاب الأخرى (١٧).

ومما يجدر ذكره إن ما استشهدنا به لا يمثل كل ما قيل في المجال التربوي لعصر ما قبل الإسلام ، فثمة نماذج أدبية كثيرة أخرى لم نذكرها ، وإن أصحابها طائفة من كبار الشعراء أمثال لبّيد العامري وطرفة بن العبد والعباس بن مرداس السلمي في طوره الجاهلي ، فلهؤلاء وسواهم أشعار في هذا الباب ولكن أكثرها كان قطعاً قصيرة في الحكمة باستثناء قصيدة ابن مرداس (١٨) لم يتسع المجال لذكرها جميعاً .

إن الأعمال التربوية التي قدّمها الشعراء المذكورون كانت في حقيقة الأمر عملاً تكاملياً بذل كل منهم ما بوسعه من أجل أن يضيف شيئاً ينفع به أبناء قومه ، وكان حماسهم لبلوغ هذه الغاية كبيراً ، ولم يبال الشعراء أن تكون بعض الأفكار التربوية متقاربة أو مكررة ، لأنهم كانوا يسعون إلى ترسيخ القيم العليا في أذهان الناس .

وأخيراً لو طرحنا السؤال الآتي : هل كان للأعمال التربوية أنفة الذكر أن تنجح بمنأى عن العمل الأدبي الفني الإبداعي ؟؟

نحن لا نظن ذلك لأن الصنعة الأدبية جاءت مكملّة ومتكافئة من حيث القيمة مع الفكر التربوي المجرد ، فأقترن أحدهما بالآخر بشكل لا انفصام له ، وهذا الترابط يمثل في الحقيقة أحد المقومات الأساسية في نجاح هذه الأعمال وخلودها على مرّ العصور .

## ٢- الطور العلمي :

وحين أطلت البعثة النبوية المشرفة بنورها على الأرض تغير الحال في مجال الأدب التربوي ، فقد نبّه القرآن الكريم بآياته البينات أذهان الناس إلى أمور لم يعهدها من قبل ، فقد أطلعوا على نصائح وإرشادات ووصايا إلهية فتمثلوها وفهموا أبعادها ومراميها وهي كثيرة جداً ومتشعبة ، تناولت مجمل جوانب الحياة البشرية في الطور التاريخي الجديد ، وتناولت الوصايا والأوامر شرائح

١٦. المصدر نفسه ، ص ٥٦٥ .

١٧. أنظر : ديوان الحماسة (باب المديح والاضيايف) .

١٨. ينظر : ديوان العباس بن مرداس السلمي ، تح. د. يحيى الجبوري ، ص ٥٨-٦٠ .

المجتمع بكافة الفئات والأعمار والثقافات ، وقبل أن نباشر رحلتنا مع الشعر التربوي الإسلامي رأينا أن نستعرض جانباً بسيطاً مما جاء به الذكر الحكيم الذي أثر بشكل شامل على المنهج الفكري الأخلاقي للشعراء في هذا العصر ، لاسيما إن القرآن الكريم لم يدع باباً من أبواب التوجيه لم يطرقه ، فضلاً عن أن الأخلاق والقيم الجديدة فرضها الله سبحانه فرضاً على المسلمين فليس لهم إلا التمثل بها والعمل بمقتضاها ، ولو أحصينا آيات التوجيه التربوي لوجدناها كثيرة جداً اخترنا طائفة مباركة منها زيادة للفائدة ولنقيس عليها التطور الذي طرأ على الأدب في هذا العصر .

قال تعالى في الصبر : " واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور " سورة لقمان الآية (١٧)، وقال تعالى في الصدق : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " سورة التوبة الآية (١١٩) ، وقال تعالى في أداء الأمانات : " إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها " سورة النساء الآية (٥١) ، وقال تعالى في التعاون على البر والتقوى : " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " سورة المائدة الآية (٢) ، وفي برّ الوالدين قال تعالى : " وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً " سورة الإسراء الآية (٢٤) ، وقال تعالى في قرناء السوء : " ولا تركزوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار " سورة هود الآية (١١٣) ، وقال تعالى في التحية : " وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها " سورة النساء الآية (٨٦) ، وغير ذلك كثير جداً في القرآن الكريم وقد استقر في ضمير النفس المؤمنة أما الحديث النبوي الشريف فلم يغفل هو الآخر الأثر التربوي الكبير في بناء الفرد والمجتمع ، وسعى نبينا الكريم محمد (ص) إلى تحقيق هذه الغاية ، لذلك جاءت أحاديثه الشريفة منسجمة مع المنهج القرآني ، وقد أثر عنه (ص) تراث هائل في تربية وتوجيه قومه رأينا أن نقف على جانب بسيط من التعريف فحسب ، فما قاله عليه الصلاة والسلام في ذم المنافق وبيان صفاته : " أربع خلالٍ من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر " <sup>(١٩)</sup> ، وفي آداب الطعام قال عليه الصلاة والسلام : " اذكروا اسم الله وليأكل كلّ رجلٍ مما يليه " <sup>(٢٠)</sup> ، وفي التيسير قال نبينا الكريم : " يسرّوا ولا تعسّروا وبشّروا ولا تنفّروا " <sup>(٢١)</sup> ، وقال عليه الصلاة والسلام في أمور مختلفة : " أطعموا الجائع وعودوا المريض وفكّوا العاني " <sup>(٢٢)</sup>

١٩. صحيح البخاري ، رقم الحديث ( ٣٠ ) .  
٢٠. صحيح البخاري ، رقم الحديث ( ١٤٠ ) .  
٢١. صحيح بخاري ، رقم الحديث ( ٦٩ ) .  
٢٢. صحيح بخاري ، رقم الحديث ( ١١٨٧ ) .

وبعد سنسعى في جولتنا الآتية إلى معرفة الأثر الذي تركه القرآن الكريم والحديث الشريف في العقل العربي ولاسيما في الشعر .

لقد كثر الشعر التربوي بشكل واضح في الحقب الإسلامية المختلفة ، فقد تجمّع تراث تربوي ضخم لم يعد بإمكاننا أن نحصيه جميعاً ، توزّع بين القطع القصيرة والقصائد الطويلة والمنظومات المتخصصة ، وتناولت موضوعاتها كل ما يشغل المسلم في حياته الخاصة والعامة ، وإزاء هذه الكثرة – وبسبب تشابه موضوعاتها – انتقينا من عيون الأدب قصائد لها شهرتها الواسعة ، تردد بعضها على ألسنة الناس على مر القرون ، ويجنبنا بقدر الإمكان تكرار الموضوعات المتشابهة خشية الملل والإطالة إلا ما جاء منها بقصد معين ، ومن الجدير بالذكر إن مضامين بعض القصائد ذابت في ثنايا الأدب الشعبي بلغة ونظام آخر ولم يعد يُعرف ناظمها الأصلي فأصبحت من ضمن الأدب التربوي العام .

ويتميز الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (ت ٤٠هـ) بكثرة الحكم والمواعظ التربوية المنسوبة إليه ، فقد جمع بعضهم ديواناً للإمام علي (كرم الله وجهه) ضمّنه في بعض الأحيان قصائد مشهورة لعدد من شعراء العرب في عصور تالية لعصر أمير المؤمنين يعود بعضها إلى الإمام الشافعي (رض) وغيره ، وقد دعّتنا هذه المسألة أن نقف حزينين أمام الاستشهاد العشوائي بها ، ولأجل ذلك انتقينا قصيدة تربوية نفتتح بها جولتنا الأدبية في هذا العصر المبارك .

ومن الجدير بالذكر قوله إننا قدمنا الإمام علي (كرم الله وجهه) في هذا الباب مع وجود من كانت وفاته قبله ، وما ذلك إلا لقربه من رسول الله (ص) وتقدمه في الإسلام وجهاده المشركين ، فمما نسب إليه كرم الله وجهه ناصحاً ولده الإمام الحسين (عليه السلام) :

عليك ببرّ الوالدين كليهما	وبرّ ذوي القربى وبرّ الأباعد
ولا تصحبن إلا تقياً مهذباً	عفيفاً زكياً منجزاً للمواعد
وقارن إذا قارنت حراً مؤدباً	فتى من بني الأحرار زين المشاهد
وكفّ الأذى وأحفظ لسانك وارغب	فديتك في ودّ الخليل المساعد
وغضّ عن المكروه طرفك واجتنب	أذى الجار واستمسك بحبل المحامد
وكن واثقاً بالله في كلّ حادث	يصنّك مدى الأيام من عين حاسد
وبالله فاستعصم ولا ترجُ غيره	ولا تك للنعماء منه بجاحد
ونافس ببذل المال في طلب العلى	بهمة محمود الخلاق ماجد
ولا تبذل الدنيا ببناء مؤمل	خلوداً فما حيّ عليها بخالد

## وكل صديق ليس لله ودّه فنادي عليه هل به من مزايِد (٢٣)

يبدو للوهلة الأولى إن ألفاظ هذه القصيدة ومعانيها موصولة بشكل وثيق بالدين الإسلامي الحنيف ، ونلاحظ الأثر القرآني عليها واضحاً أمثال ذلك : ( عليك ببر الوالدين ) و ( غض عن المكروه طرفك ) و ( استمسك بحبل الله ) وغيرها ، وإلى جانب ذلك تضمنت القصيدة نصائح كثيرة توجتها دعوة إلى الإيمان بالله تعالى وهذا ما لا تجده في الشعر القديم في ظل الوثنية ، إن من شأن هذه المعاني - التي جاءت بصيغة الأوامر - أن ترتقي بالفرد إلى الذرى ، وهذا غاية ما يطمح إليه الإمام علي (كرم الله وجهه) ورجال الله الصالحين ، وهو نابع من رسالتهم الدينية والأخلاقية العليا. وعلى ذات النهج سار الصحابي الجليل عبدة بن الطبيب (ت ٢٥هـ) وهو من المخضرمين أشتهر بالجاهلية بشعره واتصاله بشعراء عصره (٢٤) ، وفي ظل الإسلام شارك في فتوح العراق وحارب الفرس تحت لواء سعد بن أبي وقاص (رض) وأبلى بلاء حسناً ، ورجل هذه شهامته وإقدامه لن يبخل بشعره على أبناء قومه ، لذلك فقد سخر جانباً منه لأغراض النصيحة والإرشاد ، ولهذا فانه - أسوة برفاقه من شعراء هذا العصر - لم يغفل الدعوة إلى التمسك بتقوى الله في قصيدة رائعة ضمنها بعض القيم الإسلامية الرفيعة ومنها برّ الوالدين وترك الضغائن ونبذ النميمة وذلك في قوله يوصي أبناءه وهو في آخر حياته (٢٥) .

أبنيّ قد كبرتُ ورأبني	بصري وفيّ لمنظرٌ مستمتعٌ
أوصيكم بثقى الإله فانه	يُعطي الرغائب من يشاء ويمنعُ
وبيرٍ والدكم وطاعة أمره	إن الأبرّ من البنين الأطوعُ
إن الكبيرَ إذا عصاهُ أهلهُ	ضاقتُ يداهُ بأمره ما يصنعُ
ودعوا الضغينة لا تكن من شأنكم	إن الضغائنَ للقرابة توضعُ
واعصوا الذي يزجي المنام بينكم	متنصّحاً ذاك السّمام المنقَعُ

ولم يتخلف العالم والأديب الكبير أبو الأسود الدؤولي ظالم بن عمر بن جندل توفي عام (٦٩هـ) في أغلب الروايات (٢٦) وهو من كبار التابعين (٢٧) ، مخضرم أدرک الجاهلية والإسلام ، ولأبي الأسود قصيدة تربوية صادقة في ثلاثين بيتاً يفتتحها بقوله :

٢٣. روائع الحكم في أشعار الإمام علي بن أبي طالب ، تقديم عبود الخزرجي ، ص ٢٠٤ .

٢٤. ينظر : شعر عبدة بن الطبيب ، ص ٦-٧ .

٢٥. ينظر : المفضليات ، تح. احمد محمد شاکر وعبد السلام هارون ، ص ١٤٥-١٤٦ ، شعر عبدة بن الطبيب ، تح. د. عبد الله الجبوري ، ص ٤٣ .

٢٦. ينظر : ديوان ابي الاسود الدؤلي ، تح. عبد الكريم الدجيلي ، ص ٧ .

٢٧. الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ص ١٧١ .

## لا تَنهَ عن خُلُقٍ وتأتي مثلهُ عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

وهو بيت شائع لقيمته العالية حتى غدا مثلاً يضربه عامة الناس وخاصتهم ، وقد أردفه بأبيات تربوية حذر في بعضها من معاشرة السفهاء ، وخصّ هذا الموضوع بثلاثة أبيات فضلاً عن موضوعات كثيرة أخرى صفحنا عن ذكر أكثرها خشية الإطالة يقول :

فاترك محاورَةَ السَّفِيهِ فإنها	ندمٌ وغبٌّ بعد ذاك وخيمٌ
وإذا جريت مع السَّفِيهِ كما جرى	فكلاكما في جريه مذمومٌ
وإذا عتبتَ على السَّفِيهِ ولمتُهُ	في مثل ما يأتي فأنت ظلومٌ
يا أيها الرجلُ المعلمُ نفسه	هلا لنفسك كان ذا التعليمُ
ابداً بنفسك وانها عن غيها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيمٌ
ولا تُكَلِّمَنَّ عِرَضَ ابنِ عمك ظالماً	فإذا فعلتَ فعرضك المكلوم (٢٨)

وتواصل مع هذا النهج الأدبي التربوي يواجهنا عدد كبير من الشعراء في هذه الحقبة من بينهم رجل من آل بيت النبي تمسك بتراث أهله وجده رسول الله (ص) انه الإمام علي بن الحسين (ع) (ت ٧٠هـ) ، وله أدب رفيع من ذاك قصيدة في التربية بلغت ثمان وعشرين بيتاً ، ضمت موضوعات مختلفة ، وقد أثار مطلعها باستهجان إلى من لا يستجيب إلى الوعظ الديني ولا يرتدع يقول فيها :

وا عجباً للمرء في لذته	يجرُّ ذيل التيه في خطرته
يزجره الوعظ فلا ينتهي	كأنه الميت في سكرته
يبارز الله بعصيانه	جهرأ ولا يخشاه في خلوته (٢٩)

وينصرف الإمام بعد ذلك إلى إسداء نصائحه التربوية لأجل تدعيم جوانب الشخصية المسلمة لتبدو في أرقى هيئاتها ، يبدأ بقيمة كتاب الله تعالى وتلاوته يأتي بعدئذ إلى ذكر أمور كثيرة نختر منها ما يأتي (٣٠) :

واتلُ كتابَ الله تَهْدِي به	واتبع الشَّرْعَ على سنته
لا تنهر المسكين يوماً أتى	فقد نهاك الله عن نهركه
إنَّ عَضَّكَ الدهر فكن صابراً	على الذي نالك من عضته

٢٨. ديوان أبي الاسود الدؤولي ، تح. عبد الكريم الدجيلي ، ص ٢٣١ - ٢٣٤ .

٢٩. جواهر الأدب ، احمد الهاشمي ، ٢ / ٤٧٨

٣٠. تنظر القصيدة : جواهر الأدب ، احمد الهاشمي ، ٢ / ٤٧٨ - ٤٨٠ .

أَوْ مَسَّكَ الضَّرُّ فَلَا تَشْتَكِي	إِلَّا لِمَنْ تَطْمَعُ فِي رَحْمَتِهِ
لِسَانَكَ أَحْفَظْهُ وَصُنْ نُطْقَهُ	وَاحْذَرْ عَلَى نَفْسِكَ مِنْ عَثْرَتِهِ
مَنْ أَطْلَقَ الْقَوْلَ بِلَا مُهْلَةٍ	لَا شَكَّ أَنْ يَعْثَرَ فِي عَجَلَتِهِ
مَنْ لَزِمَ الصَّمْتَ نَجَا سَالِمًا	لَا يَنْدُمُ الْمَرْءُ عَلَى سَكْتَتِهِ
مَنْ أَظْهَرَ النَّاسَ عَلَى سِرِّهِ	يَسْتَوْجِبُ الْكَيَّ عَلَى مَقْلَتِهِ
مَنْ مَازَحَ النَّاسَ اسْتَخَفُوا بِهِ	وَكَانَ مَذْمُومًا عَلَى مُرَحَّتِهِ
مَنْ جَعَلَ الْخَمَرَ شِفَاءً لَهُ	فَلَا شِفَاءُ لِلَّهِ مِنْ عِلَّتِهِ

ويواصل الإمام الرضا (ع) نصائحه على هذا النمط مقتدياً بالشاعر الكبير زهير بن أبي سلمى في استخدامه أسلوب الشرط ، ويخلص في آخر الأمر إلى القول :

مَنْ جَعَلَ الْحَقَّ لَهُ نَاصِرًا      أَيْدُهُ اللَّهُ عَلَى نَصْرَتِهِ

وفي تقييمنا لأدب العصر الإسلامي التربوي - من خلال ما قدمناه من نماذج شعرية - يتضح لنا إن الشعر شهد تطوراً ملحوظاً في نظامه ، فقد اتجهت كل الأعمال السابقة إلى التخصص التام ، فعكف أصحاب تلك القصائد على معالجة الجوانب التربوية دون غيرها ، ولم يشركوا معها فنوناً أخرى على نحو ما رأيناه في الشعر الجاهلي ، وتعد هذه المسألة ظاهرة تستحق منا الإشارة والإشادة ، فقد تمكن هذا الفن أن يثبت لنفسه موقعاً متميزاً بين الفنون الأخرى في الساحة الأدبية الجديدة ، ويؤكد شخصية متميزة لم تكن له في العصر السابق ، وما ذلك إلا جزء من الوعي الفني الواضح للشعراء المسلمين ، هذا فضلاً عن التطور الواضح في نظام الفكر التربوي العربي المتأثر بالنهج الديني في هذا العهد وقد فصلنا الحديث فيه .

ويشدنا العزم إلى تتبع الآثار التربوية في تراثنا فنبلغ العصر العباسي وفيه اتخذت العلوم طابع الرسوخ والثبات ومنها علم التربية الذي بدأ يأخذ شكل النظريات المستقرة ، ولهذا فقد طور الشعراء أعمالهم في المجال الإرشادي بما ينسجم مع طبيعة حياتهم المتطورة ، وربما لا يظهر هذا الأثر بشكل سريع مع بدايات هذا العصر بيد أننا سننبه إلى الآثار الإبداعية التي طرأت عليه.

ويستوقفنا في بداية رحلتنا مع الشعر التربوي - ونحن نتقصى نماذج - الشاعر صالح بن عبد القدوس (ت ١٦٧هـ) وله قصيدة مشهورة عرفت (بالزينية) ولعل سبب تسمية القصيدة بذلك ، عائد إلى تشبيهه بمحبوبته (زينب) التي ذكرها في مطلع القصيدة ، تعد (الزينية) هذه من الأدب الرفيع ذاع صيتها في العصور التالية .

ومن السمات الواضحة إن الشعر التربوي في العصر العباسي بشكل عام مال إلى الإطالة ومنها هذه القصيدة ، بلغت الزينية سبعاً وخمسين بيتاً ، ومن السمات المميزة الأخرى ، كثرة الموضوعات التربوية التي حشدها الشاعر حتى بلغت العشرات ، ويظهر لنا إن صالح بن عبد القدوس كان يرمي إلى أن تكون القصيدة مجمعاً للحكمة بحيث تتناول كافة الموضوعات الأخلاقية ، نصغي من مقدمة القصيدة إلى الأبيات الآتية التي تدعو إلى الزهد بالدنيا وتذكر بالآخرة في قوله :

دع عنك ما قد كان في زمن الصبا	واذكر ذنوبك وابكها يا مذنّب
واذكر مناقشة الحساب فانه	لا بدّ يحصى ما جنيت ويكتب
لم ينسه الملكان حين نسيته	بل أثبتاه وأنت لاهٍ تلعب
والروح فيك وديعة أودعتها	ستردها بالرغم منك وتسلب <sup>(٣١)</sup>

عرض الشاعر بعدئذ نصائح وإرشادات كثيرة وهي تفصح عن حكمة بليغة وإيمان عميق ونية صادقة ، وهي تخامر القلوب وتأنس إليها العقول ، لا يكاد المتلقي يحسّ معها بالملل . وبعد نترك المجال لشاعرنا يعبر ببيانه وأسلوبه الرفيع عن منهجه التربوي ، فيقول :

لا تأمن الدهر الخؤون فانه	ما زال قدماً للرجال يؤدّب
فعليك تقوى الله فالزمها تفرّ	إنّ التقيّ هو البهيّ الأهيّب
وأعمل بطاعته تملّ منه الرضا	إن المطيع له لديه مقرب
وابداً عدوك بالتحية ولا تكن	منه زمائك خائفاً تترقب
واحذره إن لاقيته مبتسماً	فاليث يبدو نابه إذ يغضب
واحذره إن لاقيته متملقاً	فهو العدو وحقه يتجنب
لا خير في ودّ امرئ متملق	حلو اللسان وقلبه يتلهّب
يعطيك من طرف اللسان حلاوة	ويروغ منك كما يروغ الثعلب
وصل الكرام وإن رموك بفجوة	فالصفح عنهم بالتجاوز أصوب
واختر قرينك واصطفه تفاخراً	إن القرين إلى المقارن ينسب
واخفض جناحك للأقارب كلهم	بتذل واسمح لهم إن أذنبوا
ودع الكذب فلا تكن له صاحباً	إنّ الكذب يشين حراً يصحب
والسرّ فاكتمه ولا تنطق به	إن الزجاجة كسرهما لا يشعب
وارع الأمانة والخيانة فأجتنب	وأعدل ولا تظلم يطيب لك مكسب

٣١. صالح بن عبد القدوس ، تح. عبد الله الخطيب ، ١٢٣ .

واحذر مصاحبة اللئيم فإنه  
واحذر من المظلوم سهماً صائباً  
يعدي كما يعدي الصحيح الأجرب  
وأعلم إن دعاءه لا يحجب  
فلقد نصحتك إن قبلت نصيحتي  
فالنصح أغلى ما يباع ويوهب

شخصت الأبيات المذكورة مواطن الخلل في النفس البشرية وهي كثيرة ، وحددت السبل الكفيلة لتفنيتهما من أدرانها ، وجاءت بعض الوصايا مشفوعة بأمثلة وتشبيهات انتزعها الشاعر من الواقع ليكون أثرها أبلغ ، ويحدد معالم الصورة بدقة متناهية ، فنراه يأتي بالفكرة معنوية مجردة ويرددها بصورة مادية واقعية يمكن تحسسها كما في قوله :

والسرّ فاكتمه ولا تنطق به  
إن الزجاجة كسرهما لا يشعب

فقد شبه ذبوع السر بالزجاج المكسور وكلاهما لا يمكن إصلاحه ، ومثل هذه التشبيهات يمكن ملاحظتها ببسر في مواطن عدة من القصيدة ، وبعد لنا أن نصف هذه القصيدة بأنها مستودع للحكمة يمكن للفرد أن يستغني بها عن كتب كثيرة وأحاديث طويلة في بابها .

وإذا ما انتقلنا إلى القرن الهجري الثالث فإننا سنلتقي بطائفة من الأدباء الذين قدموا خلاصة جهودهم التربوية في قصائد تتسم بالرقّة والعذوبة ، والشافعي (رض) محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع (ت ٢٠٤هـ) واحد ممن قدم نصائحه في عدد غير قليل من القصائد والقطع الشعرية المهمة، فقد سار على نهج سابقيه في عرض أفكاره التي لا تختلف كثيراً عما ذكرناه ، وقد انتقينا إحدى قصائده المشهورة في هذا المجال وهو يفتتحها بالحديث عن أمر الله وقضائه الذي لا مهرب له وهو الموت والفناء وضرورة الإيمان والاستسلام المطلق لله ، ويدعو إلى عدم الجزع ، ثم انه يتبع هذا الموضوع بذكر السماحة والسخاء ويحدثنا عن فضيلة كل منهما ويشيد بأصحابها في قوله :

دع الأيام تفعل ما تشاء  
ولا تجزع لحادثة الليالي  
وكن رجلاً على الأهوال جلداً  
يغطي بالسماحة كل عيب  
وطب نفساً إذا حكم القضاء  
فما لحواث الدنيا بقاء  
وشيمتك السماحة والسخاء  
وكم عيب يغطيه السخاء  
ولا تري الأعادي قط ذلاً  
فان شماتة الأعدا بلاء  
ولا ترج السماحة من بخل  
فما في النار للضمان ماء  
وأرض الله واسعة ولكن  
إذا نزل القضاء ضاق الفضاء (٣٢)

٣٢. ديوان الإمام الشافعي ، جمع محمد عفيف الزغيبي ، ص ١٥ .



وترى الخفة في الوزن وجمال الإيقاع وانسجام القافية معها فضلاً عن الاستخدام اللغوي الذي مال به الشاعر إلى السهولة ، يبدو انه كان يهدف بذلك إلى تيسير حفظ الأبيات والترنم بها فجاءت متناسبة مع أذواق خاصة الناس وعامتهم وكافة المستويات الثقافية .

أما إسماعيل بن القاسم المعروف بأبي العتاهية (ت ٢١١هـ) وهو من عمالقة الأدب في هذا القرن ، وقد عركته الحياة وحولته من ماجن متهتك إلى زاهد حكيم ، وله في طوره الثاني قصائد كثيرة ، ولم يكن أبو العتاهية كسائر الشعراء فلم يرض أن يكون مقلداً لهذا فقد استثمر مقدرته الفنية الفائقة فقدم عملاً متميزاً نقل الشعر التربوي في هذا العصر إلى الذرى فنظم في هذا الموضوع أرجوزة طويلة يقول صاحب الأغاني إنها بلغت نحو أربعة آلاف مثل ولهذا سميت ( أرجوزة ذات الأمثال ) ومما يؤسف إن هذه المنظومة لم تصلنا تامة ، وما وصلنا منها إلا قليلاً ويعود الفضل في ذلك إلى أبي الفرج الاصفهاني الذي نقل فقرات منها .

تكمن قيمة منظومة (ذات الأمثال) بأنها كانت رائدة في مجالها ولم يسبق أبو العتاهية أحد قبل ذلك في هذا الفن – المنظومات - الذي غدا ظاهرة شاعت في عصره وفي العصور التي تلت ، ويعد هذا الأمر تطوراً حقيقياً في الجانب التربوي ، يتمثل هذه المنظومة وغيرها ميزة للتيار التعليمي في هذا العصر ، وقد قام بتنشيطها طائفة بارزة من العلماء والأدباء البارزين ، وبهنا جداً أن نتعرف عن قرب على هذا الانجاز الأدبي التربوي الكبير مما يمكن تحصيله من بقايا المنظومة ، يقول أبو العتاهية :

يا للشباب المرح التصابي	روائح الجنة في الشباب
حسبك ما تبغيه القوت	ما أكثر القوت لمن يموت
ما أنتفع المرء بمثل عقله	وخير نخر المرء حُسْنُ فعله
إن الفساد ضده الصلاح	وربَّ جدِّ جرَّه المزاح
من جعل النمام عيناً هلكاً	مبلغك الشر كباغية لك
إن الشباب والفراغ والجده	مفسدة للمرء أي مفسدة
يغنيك عن كل قبيح تركه	يرتهن الرأي الأصيل شكّه
ما زالت الدنيا لنا دار أذى	ممزوجة الصفو بألوان القذى
من لك بالمحض وليس محض	يخبث بعضٌ ويطيبُ بعضُ
لكل إنسان طبيعتان	خيرٌ وشرٌّ وهما ضدان
انك لو تستنشق الشحيحا	وجدته أنتنَ شيءٍ ريحا

### الخير والشرُّ إذا ما عداً بينهما بونٌ بعيد جداً (٣٣)

ولكي ينسجم عمل أبي العتاهية مع السياق التعليمي وما يتطلبه ذلك ، فقد أختار الشاعر لمنظومته بحر الرجز ليسهل على الطلاب حفظها ، ولأجل أن لا يقع في العجز بسبب هول منظومته المفرط فقد حرّر نفسه من أسر القافية الواحدة محققاً بذلك النجاح الكبير .

لقد عودنا تراثنا العربي أنه ما من أحد من الشعراء يبتكر فناً أدبياً جديداً حتى يسارع الشعراء إلى تقليده فينجح بعضهم ويخفق آخرون ، وقد حقّزت منظومة أبي العتاهية أحدهم وهو أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ) فنظم مقصورة ذاع صيتها وكثر شراحها ، عرفت باسمه (مقصورة ابن دريد) وهي طويلة بلغت (٢٣٠) بيتاً ، كبّل الشاعر نفسه بقيد ثقل حين جعلها كلها بقافية واحدة هي الألف المقصورة ومن شأن ذلك أن يؤكد المقدرة الفنية العالية التي يتمتع بها شاعرنا الأزدي ، ففاقت القصيدة ببلاغتها كثير من الأعمال التي هي من صنفها .

لقد كرس الشاعر مقصورته في موضوع الحكمة والإرشاد الأخلاقي فتناول الحياة البشرية من جوانبها المختلفة بنظام شمولي ، وحدد معالم الخير ومواطن الخلل في السلوك الإنساني فنّبّه إلى ما ينبغي عمله بوفق فلسفة تنبع من روح الإسلام الحنيف والقيم العربية السليمة التي جبل عليها الشاعر وغيره من ذوي الإصلاح والتقويم ، ولجمال قصيدة الأزدي تجعل الدارس في حيرة من أمره ، ماذا عساه أن يختار منها وماذا يدعه ولكننا آثرنا الاستفتاح ببيتين له نستشف من خلالهما مدى فهمه ومعرفته بالنفس الإنسانية ونوازعها ملخصاً ذلك بقوله :

والناس كالنبت فمنهم رائقٌ      غضٌ نضيرٌ عودُهُ مرٌّ الجنى  
ومنه ما تقتحم العين فان      ذقت جناه انساع عذاباً في اللها

وحين يستخلص الشاعر هذه الحقيقة فانه لا يفوته التفصيل ، فنراه ينساب في وعظياته التربوية كنهراً متدفقاً لا يبغي بذلك سوى مرضاة الله تعالى ، يقول في جانب من المقصورة :

والشيخ إن قومته من زيغهِ      لم يُقم التتقيف منه ما التوى  
كذلك الغصن يسيرٌ عطْفُهُ      لدناً شديداً غمزه إذا عسا

.....

من لم يعظه الدهر لم ينفعه ما      راح به الواعظ يوماً أو غدا  
من لم تُفده عبراً أيامه      كان العمى أولى به من الهدى  
من لم يقف عند انتهاء قدره      تقاصرت عنه فسيحات الخطأ

٣٣. الاغانى ، أبو الفرج الاصفهاني ، تصحيح الشيخ احمد الشنقيطي ، ١٣٨/٣-١٣٩ .

من ضيَع الحزَمَ جَنَى لِنَفْسِهِ      ندامة أذَع من سفع الذكا  
والناس أَلَفَّ منهم كواحدٍ      وواحدٌ كالألفِ إنْ أمرَ عني  
واللَّومُ للعبدِ مقيمٌ رادَعٌ      والعبدُ لا يردعه إلا العصا  
إذا تصقَّحتْ أمورُ الناسِ لم      تُلفِ أَمراً حازَ الكمالَ فاكتفى  
عوَل على الصبرِ الجميلِ انه      أَمنع ما لاذَ به أولو الحجا  
وعظَّف النفسَ على سبيلِ الأسى      إذا استقرَّ القلبُ تبريحُ الجوى  
والدهرُ يكبو بالفتى وتارةً      ينهضُ من عثرةٍ إذا كُبا (٣٤)

نكتفي من ابن دريد بهذه الأبيات من مقصورته التي نظمها على بحر الرجز ، وقد اكتفى الناظمون من سائر العلوم بالرجز لسهولة خفته وقد ألمحنا إلى ذلك ، أما الموضوعات المقصورة التربوية فهي تقليدية شائعة في أغلب أفكارها والتفصيل بعرضها لا يغني كثيراً ، ولكننا نشير إلى بعض الأفكار ذات القيمة العالية كما في قول الشاعر :

واللوم للعبد مقيم رادع  
والعبد لا يردعه إلا العصا

وقد رأى أبو الطيب المتنبي (ت ٣٥٤هـ) في ذلك حكمة بليغة لم يدعها تذهب فأفاد منها بشكل كبير ووظفها في هجائه لكافور الأخشيدي - ملك مصر - حيث قال :

لا تشتر العبد إلا والعصا معه      إن العبد لأنجاس مأكيد (٣٥)

لقد أصبحت هذه المنظومات ظاهرة شائعة في العصر العباسي ولاسيما بعد التقدم الكبير الذي طرأ على أساليب التعليم فقد كثرت الكتابات وفتحت المساجد أبوابها لعقد الحلقات العلمية ، ثم

أنشأت دور العلم (( وهي مؤسسات ثقافية لنشر الآداب والعلوم بين المسلمين )) (٣٦) ، وكان لهذه المنظومات حضور كبير في المؤسسات العلمية المذكورة أفاد المعلمون منها في نظم العلوم المختلفة (٣٧) ، وكانت التربية من بين ما حظيت به هذه المنظومات وقد كثر عددها (٣٨) .

٣٤. ينظر : ابن خالويه وجهوده في اللغة مع تحقيق كتابه شرح مقصورة ابن دريد ، تح. د. محمود جاسم الدرويش ، ص ١٥٠ وما بعدها ؛ شرح مقصورة ابن دريد ، أبي بكر الأزدي ، ص ٨ وما بعدها .

٣٥. شرح ديوان المتنبي ، ص ٥٠٧ .

٣٦. التربية والتعليم في الإسلام ، سعيد الديوه جي ، ص ٦٥ .

٣٧. الرجز ، د. جمال نجم العبيدي ، ص ٤٠٢ .

٣٨. ومنها : ( الصادح والباغم ) وهي منظومة نظام الدين ابن الهبارية البغدادي ( ت ٥٠٤ هـ ) ومنظومة ( نصف العيش ) لشرف الدين ابن أبي الوحيد ( ت ٧١١ هـ ) ؛ ومنظومة عمر ابن الوردي المعروفة بـ ( لامية ابن الوردي ت ٧٤٩ ) ؛ ومنظومة صلاح الدين بن أبيك الصفدي ( ت ٧٦٤ هـ ) وغيرها ، وان جميع هذه المنظومات مطبوعة .

تتسم هذه المنظومات بثلاث سمات أولها أنها جاءت كلها رجزاً وثانيهما إنها أصبحت متخصصة وشاملة لكل موضوعات التربية فلم يدع الناظم قضية إلا تطرق إليها ، وثالث السمات أن بعض الشعراء بالغ في طولها حتى بلغ بعضها مئات الأبيات وتجاوز بعضها الآخر إلى الألوف . وبالرغم من شيوع المنظومات التعليمية المتخصصة في جوانب التربية ، فإن الشعر التقليدي لم يفقد مكانته وبهائه ، فقد واصل كثير من الشعراء النظم فيه وما أحمد بن الحسين المعروف بأبي الفتح البستي (ت ٤٠٠هـ) إلا واحداً منهم وقد تميزت من بين آثاره الأدبية ( القصيدة النونية ) التي نظمها على بحر البسيط وهي طويلة بلغ ( ٥٩ ) بيتاً ، وقدم البستي لقصيدته هذه بمقدمة تنتمي إلى جنس الموضوع فذكر في الأبيات الآتية بعض الحقائق الثابتة وهي قوانين لا يمكن أن يغيرها الزمان يقول في جانب منها :

زيادة المرء في دنياه نقصان      وكسبه خير محض الخير خسران  
يا عامراً لخراب الدهر مجتهداً      بالله هل لخراب العمر عمران (٣٩)

وبعد أن أيقن الشاعر إن كلامه هذا لن يختلف عليه أحد ، شرع يسرد خلاصة تجربته في المجال الأخلاقي ، فانه يهيب بمتلقي نصائحه أن يصيغ السمع إلى ما سوف تجود به قريحته حيث يقول :

وارع سمعك أمثالاً أفضلها      كما يفصل ياقوت ومرجان

بعدئذ ينهال الشاعر علينا بنصائح لا جديد فيها سوى صياغتها الجميلة وهي بالرغم من تكرارها تلاقي هوى لسماعها وأول ما نختار من دروس هذه النونية الإحسان إلى الناس والصفح عن المسيء ، يقول في ذلك :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم      فطالما استعبد الإنسان إحسان  
وان أساء مسيء فليكن لك في      عروض زلته صفح وغفران

ومن الجدير ذكره إن الشاعر ينتقل من هذا الموضوع إلى موضوعات مختلفة بيد أنه لا يلبث بعد تسعة عشر بيتاً أن يعود إلى موضوع الإحسان مرة أخرى ليقول :

أحسن إذا كان إمكان ومقدرة      فلن يدوم على الإحسان إمكان  
والروض يزدان بالأنوار فاغمة      والحرّ بالأصل والإحسان يزدان

وكان تدبر الأمور موضوعاً آخر عالجه الشاعر بثلاثة أبيات يقول :

فللتدابير فرسان إذا ركضوا      فيها أبروا ما للحرب فرسان  
وللأمور مواقيت مقدرة      وكل أمر له حدٌ وميزان

٣٩. ينظر : أبو الفتح البستي حياته وشعره ، د. محمد مرسي الخولي ، ص ٣١٣-٣١٧ .

### فلا تكن عجلاً في الأمر تطلبه فليس يحمد قبل النضج بحران (٤٠)

ومن الأمور الطريفة في هذه القصيدة مخاطبة الشاعر للشَّيب والشباب فكل منهما أسلوب في الخطاب والتوجيه يختلف عن الآخر ، نصغي إلى قوله ينصح الشباب :

يا داخلاً في الشباب الوحف منتشياً      من كأسه هل أصاب الرشد نشوانُ  
لا تغترُّ بشبابٍ وارفٍ خضلٍ      فكم تقدم قبل الشَّيبِ شبانُ

ولا يخلو خطاب البستي من تفرّيع وعتاب لمن لا يرعى حق المشيب من الناس فيسرف في نزواته، حيث يقول :

ويا أبا الشَّيب لو ناحصت نفسك لم      يكن لمثلك في الإسراف إمعان  
هب الشَّيبة تبلي عذر صاحبها      ما عذر أشيب يستهويه شيطان

وبعد هذه الجولة من شعر العرب نخلص إلى القول أن هذا النمط الأدبي قد اتخذ صفة الثبات في نهاية القرن الرابع الهجري وما تلاه ، وإن ما نظمته الشعراء بعد ذلك لم يعد سوى تقليداً لما أبدعه الشعراء السابقون ولم يتمكن المقلدون أن يضيفوا جديداً يستحق ذكره بالرغم من كثرة النصوص التي ألمحنا إلى بعضها ، وقد يكون الخوض والتفصيل فيها أمراً مملاً وغير ذي جدوى بسبب التكرار لذلك نكتفي بما أثبتناه من نصوص .

ومن الجدير ذكره إن الشعر التربوي لم يقتصر على القصائد الطوال أو متوسطة الطول ، فقد نظم الشعراء أعداداً لا تحصى من المقطوعات القصيرة التي تتراوح بين البيتين والأربعة أبيات ، إن كل نص منها يمثل فكرة مستقلة واحدة كالحض على طلب العلم وأداء الأمانة والتخلي بالصدق أو الكرم وغير ذلك . ولا يكاد يخلو ديوان من هذه الدروس الأخلاقية ، بيد أننا صفحنا عن ذكرها عمداً خشية الإطالة والله الموفق .

## الخاتمة

مما تقدم يتبين لما إن الأدب التربوي قديم عند العرب فوجدناه في النصوص الأولى من عهد زهير بن أبي سلمى ورفاقه ، واتسم بسمتين أساسيتين تمثلت أحدهما ببساطة المعاني وسهولة الألفاظ وهذا

٤٠ . البهران : التحسن الذي يطرأ على المريض فجأة .

أمر تعمد الشعراء لأجل أن تكون أفكارهم مفهومة ومؤثرة لدى الناس ، وتمثلت الأخرى بسمو أفكارهم وصدقها وإنسانيتها .

وقد مرّ شعر التربية بطورين اصطلاحنا على الأول منها بالعفوي التلقائي لأنه كان يعكس طبيعة المنهج الأخلاقي العربي الرفيع في عهده الأول قبل الإسلام ، أما الطور الثاني : فهو علمي اقترن بالنهج الإسلامي وتأثر بالقرآن الكريم ، وقد خطى هذا الفن خطوات واسعة في تطوره فانتقل من نظام القصيدة التقليدية – التي تضم عدة أغراض – إلى نظام القصيدة الطويلة المتخصصة بالتربية، ثم انتقل بعد ذلك إلى طور المنظومات الرجزية التي هيأ الشعراء لها وسائل النجاح . وبهذا لم يعد الشاعر ليغادر غرضه التربوي التعليمي إلى غيره من الأغراض وجاءت هذه المنظومات على بحر الرجز ليسهل على طلابها حفظها وترويدها وتمثل أفكارها . وبعد ... فان ما أبدعه العرب في المجال الأدبي التربوي يعد ظاهرة فريدة لا مثيل لها بين التجارب الإنسانية الأخرى .

## المصادر

١. ابن خالويه وجهوده في اللغة ، تح. د. محمود جاسم الدرويش ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٩٠ .
٢. أبو الفتح البستي حياته وشعره ، د. محمد مرسي الخولي ، دار الأندلس ، ط١، ١٩٨٠ .
٣. الأغاني ، أبو الفرج الإصفيهاني تصحيح الشيخ أحمد الشنقيطي ، مطبعة التقدم ، مصر د. ت
٤. التربية والتعليم في الاسلام ، سعيد الديوه جي ، مطبعة جامعة الموصل ، ١٩٨٢ .
٥. جواهر الادب ، احمد الهاشمي ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٣٧ .
٦. ديوان ابي الأسود الدؤلي ، تح. عبد الكريم الدجيلي ، شركة النشر والطباعة العراقية ، بغداد ، ط١ ، ١٩٥٤ .
٧. ديوان الإمام الشافعي ، جمع محمد عفيف الزغبى ، مكتبة الشرق الجديد ، بغداد ، ط٤ ، د. ت .
٨. ديوان حاتم الطائي ، تح. كرم البستاني ، دار المسيرة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٢ .
٩. ديوان الحماسة ، أبو تمام ، تح. د. عبد المنعم احمد صالح ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ .

- ١٠ . يوان شعر المثقب العبدى ، تد . حسن كامل الصيرفى ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ، مصر ، ١٩٧٠ .
- ١١ . ديوان طرفة بن العبد ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦١ .
- ١٢ . ديوان العباس بن مرداس السلمى ، تد . د. يحيى الجبورى ، دار الجمهورية ، بغداد ، ١٩٦٨ .
- ١٣ . ديوان عبيد بن الابرص ، تد . د. حسين نصار ، مطبعة البابى الحلبي ، مصر ، ط ١ ، ١٩٥٧ .
- ١٤ . روائع الحكم فى أشعار الإمام علي بن أبي طالب ، شرح عبود الخرزجي ، مطبعة دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٨٨ .
- ١٥ . شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة أبي العباس ثعلب ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ١٦ . شرح ديوان المتنبي ، دار المسيرة ، بيروت ، د . ت .
- ١٧ . شرح مقصورة ابن دريد ، ابن دريد الأزدي ، مطبعة الصاوي ، مصر ، ط ١ ، د . ت .
- ١٨ . شعر عبد الله بن معاوية ، جمع . عبد الحميد الراضى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٦ .
- ١٩ . شعر عبدة بن الطبيب ، تد . د. يحيى الجبورى ، دار التربية ، بغداد ، ١٩٧١ .
- ٢٠ . الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، تد . احمد شاكى ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٧ .
- ٢١ . صالح بن عبد القدوس ، تد . عبد الله الخطيب ، دار البصري ، بغداد ، ١٩٦٧ .
- ٢٢ . صحيح البخارى ، تد . طه عبد الرؤوف سعد ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، ٢٠٠٣ .
- ٢٣ . لامية العرب ، الشنغرى ، مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٤ .
- ٢٤ . المفضليات ، تد . احمد محمد شاكى وعبد السلام هارون ، دار المعارف ، مصر ، ط ٤ ، ١٩٦٤ .